لا مساومة

حبيب بن زيد

رضي الله عنه

إلى أي مدى تستطيع أن تثبت على الحق؟

في بيعة العقبة الثانية طلب الرسول ﷺ من مصعب بن عمير أن يأتي إليه بكل من أسلموا بالمدينة إلى مكة في موسم الحج..

ورغم صعوبة الرحلة وخطورة الاجتماع الذي وضع الرسول ﷺ له كل الاحتياطات اللازمة لضمان سريته وإخفائه عن قريش..أصر الرسول ﷺ رغم ذلك كله على أن تأتي امرأتان ممثلتان عن النساء المسلمات في المدينة..

واجتهد مصعب بن عمير في أن يختار اثنتين تتحملان مشقة الرحلة وصعوبة المهمة وخطورتها..

ووقع اختياره على اثنتين..

نسيبة بنت كعب وأختها.

ولم تكن نسيبة بنت كعب إلا أما لبطلنا حبيب بن زيد، ولم تكن أختها إلا خالته..

وكان معهما أيضا في تلك البيعة المباركة أبوه زيد بن عاصم.

لقد خرجت الأسرة كلها تبايع رسول الله ﷺ على التضحية بالمال والنفس فداء لدين الله..

وعاد حبيب بن زيد إلى المدينة ولا زالت كلمات الرسول ﷺ محفورة في قلبه، فلا يتخلف عن غزوة ولا يتأخر عن ميدان قتال..

حتى جاء اليوم الذي اختاره الرسول ﷺ لمهمة جليلة..

وخطيرة.

* * *

ذات يوم وصل إلى مسامع الرسول ﷺ خبر في غاية الغرابة والخطورة..

لقد كان هناك من يدعى النبوة مع رسول الله ﷺ في جنوب الجزيرة العربية.. وزاد من غرابة الأمر وخطورته، أن هذه الأكذوبة الكبرى لم يكن بطلها أحمق واحد..

بل اثنان..

اثنان دفعة واحدة..

الأول في صنعاء باليمن، وهوالأسود بن كعب العنسي..

والثاني في اليمامة، وهو مسيلمة.

كانت المعلومات خطيرة.. والحدث أخطر..

كان الأمر يعنى أن جبهتين قد بدأتا تعدان العدة للوقوف في وجه الرسول ﷺ..وربما كانت هاتان الجبهتان أخطر على الدعوة من جبهة قريش نفسها..

فادعاء النبوة يعني اختلاط الأفكار وبلبلة الناس وزرع بذور الفتنة..

وبالفعل.. فقد بدء الكذابان حملة التشكيك في نبوة الرسول ﷺ وتقليب القبائل عليه.

ولم تكن المعلومات التي وصلت إلى الرسول ﷺ عن مسيلمة من مصدر يمكن تجاهله أوالشك في حديثه..

فلقد جاءت المعلومات من مسيلمة نفسه...

فلقد فوجئ الرسول ﷺ يوما بوقاحة لم يتوقعها من مسيلمة، عندما وجد مبعوثه أمامه يبلغه رسالة منه.

وما إن أعطى الرسول ﷺ الرسالة إلى من يقرؤها، حتى سمع كلاما عجيبا:

«من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله.. سلام عليك.. أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون».

وبسرعة أشار الرسول ﷺ إلى من يكتب له بالرد على الرسالة، فكتب يقول:

« بسم الله الرحمن الرحيم..من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب

السلام على من اتبع الهدى..

أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

كان رد الرسول ﷺ واضحا شديدا عنيفا..

كان الرد يعنى أنه من الأفضل لك يا مسيلمة أن تكف عن هذه اللعبة الحمقاء التي بدأت فيها، فنبوة الله ليست لعبة تصل بها إلى امتلاك الأرض والعباد.

وكانت الخطوة الثانية أن يختار الرسول ﷺ من يبعث به إلى مسيلمة الكذاب..

كان الأمر لا يخلو من خطورة..

واختار الرسول ﷺ للمهمة..

حبيب بن زيد..

وبكل شجاعة.. لم يتردد حبيب في قبول المهمة.. وأعد العدة للسفر لحمل الرسالة إلى مسيلمة..

وهناك.. كانت بطولة حبيب بن زيد النادرة..

النادرة بحق.

فما إن وصل حبيب بن زيد إلى مسيلمة، حتى سلمه الرسالة، والذي أخذ يفتحها في زهو وغرور..

ودعته حماقته وجهله بأن يظن أن محتوى الرسالة به ما يبشره ، وأن الرسول ﷺ قد وافق على طلبه المجنون الغبي..

وما أن فتح الرسالة وقرأ ما فيها، حتى صدم أشد الصدمة، وشعر بالمهانة والخزي..

واحمر وجهه الكئيب، ونظر بكل ما امتلكه من غيظ وحدة إلى حبيب بن زيد..

وكعادة الجبناء الذين لا تخلو نفوسهم من خسة ونذالة..أصر على أن يرد على الرسول ﷺ في شخص رسوله حبيب بن زيد.

فصحيح أن العرب كان يقدسون احترام الرسل، ولا يحملوهم مطلقا مسئولية الرسالة وما بها مهما كان..

وصحيح أن الاعتداء على الرسل كان نوعا من التخلي عن الشهامة والرجولة والتي كانت أخلاقا تسري في دماء العرب.

إلا أن الشخص الذي جرؤ على الله، وماتت في قلبه أدق دقائق الإيمان.. يصبح من السهل عليه أن يعتدي على البشر ظلما وعدوانا حتى وإن كان رسولا.

وبالفعل..

أصدر مسيلمة الإشارة إلى أعوانه أن يأخذوا «حبيبا» ليحبسوه، ثم يبدؤوا بعدها رحلة تعذيب بشعة له..

وبعد أن أنهكوه من التعذيب..أمر مسيلمة بتجميع الناس والإتيان بحبيب بن زيد..

ليقف حبيب بن زيد منهكا من آثار ما تعرض من ضرب مبرح..

وأخذ مسيلمة ينظر إليه نظرة استعلاء..ثم قال له في غرور واضح:

- يا حبيب.. أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

كان توقع مسيلمة الخائب ونظرته الضيقة، توهمه بأن «حبيب بن زيد» قد أنهك تحت تأثير ما تعرض له من تعذيب، وأنه على استعداد لأن يفعل أي شي من أجل أن ينقذ نفسه ويعود إلى بلاده..

صور له جهله أن الإيمان قد يشترى، وأن الصمود والتحدي والشجاعة لدى حبيب بن زيد.. لم تعد إلا بقايا..

وإذا بحبيب بن زيد يصدمه صدمة تهز كيانه وتسحق كبريائه، فقال في شجاعة وتحد:

- نعم أشهد أن محمدا رسول الله.

وكأن مسيلمة قد اختل توازنه من هول الصدمة، فإذا به يمرر السؤال الأول وكأنه يريد الإجابة على سؤال آخر قائلا:

- وتشهد أني رسول الله؟

وإذا بحبيب هذه المرة يرد عليه باستهانة ممزوجة بسخرية شديدة قائلا:

- إني لا أسمع شيئا..!!

هنا شعر مسيلمة بالخزي والعار، بعد أن فشل فيما كان يصبو إليه أمام الحشود التي جمعها، وهاج كالثور المذبوح، وأمر سيافه أن يجهز على حبيب أمام الناس...

وجاء السياف..ولكنه لم يشأ أن يضربه ضربة تريحه بالشهادة.. فلقد أخذ يقطع جسده بالسيف قطعة قطعة..

وفي كل مرة يقطع فيها السياف قطعة من جسد حبيب، كان مسيلمة ينتظر منه كلمة..

كلمة واحدة فقط ترد كرامته أمام الناس..

فإذا بحبيب رسول رسول الله ﷺ، لا ينطق إلا بجملتين اثنتين:

«لا إله إلا الله.. محمد رسول الله».

ربما كان مسيلمة يتألم أكثر من حبيب مع كل قطعة كانت تقطع منه..

كانت كل قطعة تقطع من حبيب بن زيد، تضيف إلى رصيده فخرا وعزة..بينما كانت تضيف إلى مسيلمة عارا وخسة وكذبا ..

كان من الممكن أن ينجو حبيب بن زيد بنفسه بكلمة ترضي مسيلمة ولا يؤمن بها..

وهو يعرف ذلك..

لكن احتقاره لرجل يكذب على الله كل يوم ويقتل رسله، منعه من أن يخضع له ولو كذبا..

وأخيرا سقط البطل..صاحب البيعة..بعد أن نفذ شروط البيعة كأفضل ما يكون..

وكان بطلا شجاعا كأفضل ما يكون..

ووصل الخبر إلى أمه نسيبة بنت كعب.. فتحاملت على نفسها وضغطت على أسنانها غيظا، وأطلقت يمينا بأن تثأر لولدها من النبي الكذاب، وتغوص برمحها وسيفها في لحمه الخبيث.

وجاء الموعد المرتقب.. مع تولي أبي بكر الصديق الخلافة بعد رسول الله ﷺ..

وبجيش جرار على رأسه سيف الله المسلول خالد بن الوليد، أصدر الخليفة أبو بكر أوامره بالقضاء على الفتنة في اليمن بقيادة مسيلمة الكذاب.. في موقعة اليمامة..

وخرجت نسيبة في الجيش..

خرجت وفي يمينها سيف، وفي يسارها رمح، وفي قلبها ثورة انتقام أم لابنها المقتول غدرا..

وما إن بدأت المعركة.. حتى ألقت بنفسها في قلبها وهي تصرخ بلا توقف:

- أين مسيلمة الكذاب؟

أخذت نسيبة تحارب بلا هوادة وهي ترى ابنها في كل وجه تقابله.. وأثخنت نسيبة بالجراح وهي في طريقها إلى الكذاب الحقير..

إلا أن الجراح كانت قد كثرت عليها واشتدت دون أن تصل إليه..ولم يخفف عنها إلا علمها أنه

قد وصل إليه غيرها ليقتل الكذاب مدعي النبوة.

وارتفعت راية الإسلام.. وأخذت نسيبة تنظر إليها في انتظار يوم تنظر فيه لابنها وجهها لوجه، فتبلغه ببشارة النصر.

هنيئا لك يا نسيبة يا أشجع النساء بابنك حبيب.

ووداعا يا حبيب.. يا رمز التضحية والفداء والحب لرسول الله ﷺ.

* * *

دروس وتحليل

١ - الأم لها دور كبير في صنع الأجيال الصالحة والبطولات النادرة (أم حبيب بن زيد..إحدى المرأتين اللتان تمثلان النساء في بيعة العقبة).

كانت شجاعة نادرة من نسيبة بنت كعب وأختها أن تقبلا أن تكونا ممثلتين للنساء في بيعة العقبة الثانية، على ما تتضمنه الرحلة من مشقة كبيرة وخطورة على حياتهما إذا انكشف الأمر، وكان طبيعيا أن تنجب بطلة مثل نسيبة بنت كعب بطلا شجاعا مثل حبيب بن زيد، فسلوك الأم له أكبر الأثر على تشكيل الأجيال القادمة، فإما أن تخرج أجيالا صالحة تحرص على الدين وتخدم الوطن وتحترم الأخلاق، وإما أن تخرج أجيالا فاسدة مستهترة، تعشق المعصية وتهمش الدين في حياتها، وتسخر من الأخلاق والقيم.. فتفسد حياتها قبل أن تفسد الوطن.

٢ - الثبات على الحق مهما كانت الضغوط، بطولة نحتاجها بشدة في زمن الفتنة والفساد (ثبات حبيب بن زيد أمام تعذيب مسيلمة الكذاب).

نحن في عصر زادت فيه الفتن وكثرت الضغوط التى تدفع الواحد منا بعيدا عن الطاعة، وتجعله يقدم التنازلات تلوالتنازلات من أجل الحياة والمصلحة، وهو ما يدفع بالمجتمع إلى الانهيار وضياع قيم الحق والعدل يوما بعد يوم، ودائما تكون المبررات بأن الواقع صعب والضغوط قاسية.

إننا في عصر نحتاج فيه إلى بطولة كبطولة حبيب بن زيد، تثبت على الحق، مهما تكن الضغوط.

* * *